أحمد لطفي السيّد

اثر وفاة احمد لطفي السيد قبل اسابيع في القاهرة ، طلبت « حوار » الى اثنين من اصدقائه عرفاه وعملا معه بصورة مباشرة واطلعا على نتاجه اطلاعا عميقاً وثيقاً ان يكتبا عنه لها . فكتب الدكتور ابراهيم مدكور عن فكره الاصلاحي وقارن بينه وبين المفكرين المصلحين الاخرين الافغاني وعبده . وكتبت الانسة عفاف لطفي السيد عن حياة عمها وضمنت مقالها بعض الذكريات والانطباعات الشخصية .

- لطفي السيّد بين المصلحين

ابراهيم مدكور

للنهضة المصرية الحديثة رواد شقوا طريقها واقاموا صرحها ، دعوا اليها بالسنتهم واقلامهم ، وبذلوا في سبيلها ارواحهم . وربما اختلفت طرائقهم وتنوعت وسائلهم ولكنهم يلتقون عند هدف واحد وغاية مشتركة ، هي متابعة ركب الحضارة واستعادة المجد الغابر . ومن بينهم ثلاثة تعاصروا وتلاحقوا ، واخذ بعضهم عن بعض ، وكوّنوا سلسلة متصلة الحلقات ، بحيث اذا ذكر احدهم خطر الآخران بالبال ، واعني بهم جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، واحمد لطفي السيد .

اما جمال الدين فهو بحقّ الثائر الاول بين المسلمين في العصر الحديث ، ثار على التقاليد البالية والعقول الجامدة ، واستطاع في النصف الاخير من القرن الماضي ان يرفع الصوت جهرة ضد الظلم والاستبداد . كان يمقت ظلم الملوك والحكام ، كما كان يمقت عدوان الاجانب والمستعمرين . وقلما حمل على هؤلاء وهؤلاء ، وكان لحملته آثارها السريعة والمباشرة في مصر وايران . صوّب سياسياً الى هدفين اساسيين : دستور يحمي الافراد ويحترم حقوقهم ، واستقلال يحفظ كرامة الامة ويعيد اليها مجدها ؛ وهو بهذا يعدّ اب النظم الدستورية والحركات الاستقلالية في العالم الاسلامي . ولعله ما كان يقنع باستقلال الاقطار وانفصال بعضها عن بعض ، وانما كان يطمع في تحقيق جامعة اسلامية ، وقيام دولة كبرى تنافس الدول الاوربية . طوّف ما طوّف في الشرق والغرب ، وبثّ آراءه هنا وهناك . استضافه الملوك والامراء ، تقديراً لشأنه او اتقاء لخطره ، ثم لا يلبث ان تحاك له الدسائس والمؤامرات ، فيرحل فاراً او معتذراً .

زار مصر غير مرة ، واقام فيها زمناً ، وعمرت مجالسه بالتلاميذ والاتباع . وعلى رأسهم محمد عبده الذي فتح امامه آفاقاً جديدة ، فوجّهه نحو الثقافة الغربية ، ووقفه على ما لمسه في البلاد الاسلامية من مشاكل وصعوبات . وقد اعجب السيد بتلميذه ، ولم يكن فارق السن بينهما كبيراً .. فزامله وآخاه ، واصبحا يرمزان معاً للدعوة الجديدة ، ويحملان راية التجديد والاصلاح .

والواقع ان الاستاذ الامام تأثر بجمال الدين واثر فيه ، اخذ عنه دعوة التجديد وشاركه في آرائه السياسية ، ولكنه كان يرى ان الامر اعقد من ان يحلّ بالعنف ، واعمق من ان يؤخذ على عجل . والجدير بنا ان ننشّىء الشعوب الاسلامية تنشئة سليمة ، ونربيها تربية دينية واستقلالية ، ونخلق فيها باختصار الوعي القومي والديني الصحيح . وسبيل ذلك ان نبثّ الافكار الجديدة في الدرس والمحاضرة ،وننشرها في الصحف والاندية . وما مجلة « العروة الوثقى » التي ظهر منها ١٨ عدداً في ثمانية اشهر الاصورة من وسائل هذا النشر ، اشرف عليها السيد ، وحرر معظمها الاستاذ الامام . اخرجاها معاً في باريس باسم تلك الجمعية التي كانت تمثل رابطة الشعوب الاسلامية ، وهي « جمعية العروة الوثقى » ، الا انها لم تلبث ان ماتت في مهدها تحت ضغط الاستعمار الانكليزي وحبائله . وفي سبيل النشر

ايضاً لجأ السيد في اخريات حياته الى الدرس والمحاضرة ، في أيا صوفيا ومسجد احمد باسطنبول ، ولم يتسع لهما وقته في عنفوان الشباب .

اما تلميذه وصديقه فقد كان ارغب في البحث والتأمل ، واميل الى الهدوء والاعتدال . نشأمدرّساً ، وبقي يحنّ الى التدريس دائماً ، ولم يضيع فرصته قط ، وان صرفته عنه شواغل شتى . فلم يكد يستقر بمنفاه في بيروت عام ١٨٨٥ حتى حوّله الى قاعة بحث ودرس ، واخرج عدة كتب في اربع سنوات ، وكان من احبّ الامور اليه ، وهو يضطلع بوظيفة مفتي الديار المصرية ، درس التفسير في الرواق العباسي بالازهر . واقامةً للنهضة على اسس سليمة دعا الى اصلاح التعليم ، وبدأ بالازهر فسنّ سنة تطوير الدراسة فيه . ونادى باصلاح المحاكم الشرعية ، واقترح انشاء مدرسة خاصة لتخريج قضاتها ، فوضع اللبنة الاولى في بناء مدرسة القضاء الشرعي . وتعمق في درس التوحيد والفقه ، فصاغ العقيدة الاسلامية صياغة تنفي عنها الزيغ والجمود ، وفتح باب الاجتهاد الذي ابت القرون السابقة الا ان تغلقه . رأى ضرورة تطور التشريع في ضوء ظروف المجتمع وحاجاته ، واستطاع بذلك ان يلائم بين الحضارة الغربية والمبادىء الاسلامية . واذا كان على الشعب واجب الطاعة للولاة والحكام ، فان من حقه ان يناقشهم الحساب بواسطة ممثليه ، وكان محمد عبده نفسه عضواً في مجلس شورى القوانين . تلك هي آراؤه في الاصلاح والتجديد، نشرها في درسه ومجلسه ، واعلنها في كتبه ومقالاته . واتخذ من « الوقائع المصرية » ، يوم ان تولى تحريرها ، منبراً لنشر الافكار الجديدة ، ووسيلة للنهوض بالادب واللغة .

في هذا الجو نشأ لطفي السيد ؛ تأخر عن زميليه نحو ربع قرن ، وظهر حين بدأت تعاليمهما تنمو وتنتشر . عرفه محمد عبده في مدرسة الحقوق سنة ١٨٩٢ ، واعجب باسلوبه ، مما شجعه على الكتابة والنشر . وتوثقت الصلات بينهما فيا بعد ،الى حد اغضب الخديوي عليه في وقت كان يحظى فيه بالرضا السامي . ولم يفته ان يتتلمذ لجمال الدين ، سعى اليه في اسطنبول وهو ما يزال طالبا في مدرسة الحقوق، واخذ بحديثه ومجلسه ، واحس بمقته للسياسة الانكليزية في البلاد الاسلامية . ولا شك في ان صلته بالثقافة الغربية كانت

اوثق من صلة استاذيه، اجاد الفرنسية اجادته للعربية، وقرأ فيها ما لم يقرأ واحد منهما ، وهو بوجه عام كثير القراءة . ولقي من فلاسفة الغرب وادبائه ما لم يلقيا ؛ فكان اقرب الى ثقافتهم ، واكثر اخذاً عنها ، واشدّ تعلقاً بها .

شغلته ابواب الاصلاح في سن مبكرة ، وحاول ان يدرسها درساً منهجياً ، وان يحولها من افكار عامة غامضة الى حقائق محدودة واضحة . وكانت السياسة اول ما اجتذبه ، فكوّن وهو لا يزال معاوناً للنيابة مع بعض الاصدقاء جمعية سرية لتحرير مصر ، واريد به ان يقيم في سويسرة مدة تمكنه من الحصول على الجنسية السويسرية ، وبذا يستطيع ان يصدر تحت هذه الحماية صحيفة تقاوم الاحتلال البريطاني ، وفعلا سافر في عام ١٨٩٧ ، وما اشبهه في ذلك بمغامرات استاذه جمال الدين . وفي عام ١٩٠٥ رأى ان يتفرغ نهائيا للحياة السياسية ، وان يواجهها مواجهة حقة ، فاستقال من النيابة ، وانشأ « الجريدة » مع جماعة ممن كانوا يسمون اصحاب المصالح الحقيقية ، واسس بعد ظهورها بقليل « حزب الامة » . وقد وكل اليه ادارتها ورئاسة تحريرها ، واضحت مدرسة صحفية تخرج فيها صحفيو المستقبل ، امثال هيكل وطه حسين . ولعلها اول صحيفة مصرية لحما ودما ، قامت على ايد مصرية وبرأسمال مصري ، ولها شأنها في النهضة الادبية وفي ادب المقالة بوجه خاص ، الذي رسم الاستاذ الامام معالمه في « الوقائع المصرية » من قبل. وكان هدفها ارشاد الامة الى اسباب الرقي ، واسداء النصح للحكومة ، ونقدها ان دعا الامر . ولم تلبث ان اثارت سخط الخديوي ، وعرّضت رئيس تحريرها للغضب السامي .

وفي حزب الامة حاول ان يجعل من مبادئه نظريات علمية ، فيحدد معنى الوطنية والقومية ، ويعرض للمشاكل الحاضرة في ضوء آراء علماء السياسة والاجتماع ، يصدر تارة عن ارسطو واخرى عن اوغست كونت . واستطاع في شجاعة ان يعارض فكرة الجامعة الاسلامية برغم كثرة مؤيديها ، واحلّ محلها فكرة القومية المصرية . واليه تعزى « سياسة مصر للمصريين » ، وفي رأيه ان عليهم وحدهم يقع عبء تحريرها واستقلالها ، دون ان يطلبوا معونة من دولة اجنبية . وكان يعلن ان خدمة الدولة تكليف لا تشريف ، وان الوظيفة مهما يكن نوعها فريضة لا منحة . دافع ما وسعه عن الحرية لانها هي الحياة بل اعزّ منها ، وعن الدستور لانه يقرر سلطة الامة ويحميها من استبداد

الفرد ، وعن الحياة النيابية لانها اصلح من اي نوع من الحكومات الاخرى فسياسته ديمقراطية برلمانية تعتد بالفرد وتعول على الشورى ، تميل الى الاعتدال ، وتحكّم العقل والمنطق اكثر مما تخضع للشعور والعاطفة .

استمر يردد هذه التعاليم في الحزب وفي « الجريدة » الى ان قامت الحرب العالمية الاولى ، وكان يأمل الا تشترك مصر فيها الا بثمن . وعبثاً حاول دون جدوى ، فقرر ان يكسر قلمه ويعتزل السياسة والصحافة معا ، ولكن الى حين . فقد بقي في مقدمة اقطاب السياسة المصرية في الخمسين سنة الاخيرة: بعث مع سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي ومحمد محمود شرارة ثورة سنة ١٩١٩ ، وتابع آثارهـا خطوة خطوة . فكان من مؤسسي الوفد المصري ، وتولى الوزارة غير مرة ، وساهم في المفاوضات المصرية البريطانية بشخصه أو برأيه ، وكان يرجع اليه غالبا في المشاكل السياسية الكبرى ، ولرأيه وزنـه وقيمته ، خصوصا وهو لم ينغمس في الخصومة الحزبية .

والسياسة عنده وثيقة الصلة بالاجتماع ، وحظّ الامة من النضج السياسي رهن بمستواها الاجتماعي . وكم كان يحلو له ان يتحدث عن الجماعات البشرية وخصائصهـا وعن الشعوب وطبائعها ، ويحاول عادة ان يفسر الظواهر الاجتماعية في ضوء ثقافة الامـة وتقاليدها ومعتقداتها . وكان يؤمن ايمانا جازما بنظرية التطور ، ينادي بها ويشرحها عند كل مناسبة . وفي رأيـه ان الفرد يتطور كما يتطور المجتمع ، ومن الظلم ان نحكم على الشباب بعقلية الشيوخ ، وشباب اليوم غير شباب الامس . ولقد بقي فيلسوفنا التطوري شابا برغم تقدم سنه ، ينكره الشيوخ احيانا ، وقلّ ان يحس الشبان والكهول بالبعد عنه. يستقبل الافكار الجديدة برحابة صدر ، ويزنها بميزانها الصحيح دون تعصب او تحيز . وكل همه ان يلائم بين دعوة الاصلاح وسنة التطور ، لانها ان خرجت عليها فلا امل في نجاحها .

وهذا المصلح ممن يقولون بنظرية التقدم ايضاً ، فهو يرى ان الانسانيـة سائرة الى الامام في علمها وصناعتها ، في بحثها وتفكيرها ، في نظمها وقوانينهـا ، فهو من انصار

التفاؤل الذين يرون الخير في التجديد والتغيير . وجيل اليوم خير من جيل الامس ، وثلاثة اجيال ناهضة كفيلة بان ترقى بالامـــة المصرية الى مستوى الكمال . وليس القول بالتطور والتقدم من ابتداعه ، ولكنه كان مخلصا لها في دعواته الاصلاحية . واضحت فكرة الاجيال الثلاثة عقيدة ثابتة لا تخفى على تلاميذه واصدقائه . وفي ضوء هـــذا حاول ان يصلح وهو مملؤ بالامل والرجاء ، وقد مدّ الله في اجله الى ان شاهد ببصره ثمار اصلاحه.

وكان يرى منذ اخريات القرن الماضي ان المرأة ، وهي دعامة الاسرة ، مقيدة في مصر بالاغلال ، وانها لا تؤدي وظيفتها الاجتماعية اداء كاملا . لذلك رحب بدعوة صديقـــه قاسم امين ، وقرأ معه كتاب « تحرير المرأة » قبل ان ينشر . واضطلع هو بوضع هـــذه الدعوة موضع التنفيذ ، فافسح للمرأة المجال في حديثه ومجلسه ، وكتب عنهـــا في وقت كان يعدّ فيه كل ما يتصل بالنساء عورة . وخطا الخطوة الكبرى فـيما بعد ، ففتح للفتاة المصرية باب التعليم الجامعي ، واجلسها مع الفتى المصري جنبـا الى جنب . خطاها على مسؤوليته وهو يقدّر مدى نفور الرأي العام منها في البداية ، ولاقى في سبيلها ما لاقى من استنكار ومعارضة . ولقد طابت نفسه يوم ان ظهرت ثمار غرسه ، وبدت المراة المتعلمة زهرة المجتمع المصري تؤدي رسالتها في شتى الميادين ، وسمت مراتبها حتى اضحت وزيرة .

ولا سبيل الى نهوض حقيقي الا بالعلم ، والعلم الغزير . وقد اريد بالتعليم الحديث في مصر بعد الاحتلال البريطاني ان يقف عند المدرسة الثانوية ، وللسياسة الاستعماريـة في ذلك اهداف لا تخفى . وما انشىء في اخريات القرن الماضي من معـاهد عالية كمدرسة الحقوق ودار العلوم لم يكن ينحو تماما منحى التعليم الجـامعي . واذا كانت مصر تبعث ببعض بنيها الى الجامعات الاوربية ، فما اجدرها ان تكون لها جامعة خاصة بها . وكان لطفي السيد على رأس الداعين الى هذه الجامعة ، ولتكن اهلية ما دام المسؤولون لا يرحبون بها ، وربما كان هذا اعون على استقلالها وتحررها . وفعلاً انشئت سنة ١٩٠٨ على صورة كلية آداب مصغرة ، ودعي للتدريس فيها بعض كبار المستشرقين . وكان استاذ الجيل على اتصال وثيق بها ، واختير وكيلا لها زمناً حاول فيه ان تعترف الدولة بشهادتها . وانتهى الامر اخيراً الى انشاء الجامعة الاميرية عام ١٩٢٣ ، وادمجت فيها الجامعة القديمـــة . واختير لطفي السيد مديراً لها ، واستمر يشغل هذا الكرسي حتى سنة ١٩٤١ فيما عدا فترات

دعي فيها للوزارة ، او استقال محتجاً على ما وجّه للجامعة من عدوان .

ولقد كان حريصا على امرين هامين : استقلال الجامعة ، وحرية البحث العلمي .وخطا في سبيل استقلالها خطوات اوشكت ان تضاهي بها اقدم الجامعات الاوربيـــة ، فاعتبرت معهداً عاما مستقلا له شخصيته المعنوية ، يدير شؤونه بنفسه ويسمو على التيارات السياسية والحزبية . ولم يتردد في ان يستقيل من منصبه مرتين حماية لهذا الاستقلال ، ولانزال نذكر استقالته الاولى المدوية عام ١٩٣٢ التي تعد احد احجار الزاوية في بنيان الحياة الجامعية المصرية . واما حرية البحث فهي في نظره اساس الدراسة الجامعية ، ولا قيمة لها بدونها . وقد ضرب لها من نفسه مثلا في حديثه مع الاساتذة والطلاب ، وفيما رسمه لهم من الوان النقد وفتحه امامهم من ابواب المناقشة . وحماها بكل قواه ، ولم ننس بعد خصومـــة الشعر الجاهلي التي اريد بها ان تكون قضية دينية ، وابى الا ان يعتبرهـــا نظرية علمية . وحياتنا الجامعية مدينة له في كثير من تقاليدها ، وهو اب التعليم الجامعي غير منازع .

كان يدرك تمام الادراك رسالة الجامعة ، ويبذل ما وسعه لحسن ادائها . وهدفهـــا الاول في رأيه ان تنهض بالبحوث العلمية والادبية ، بحيث يستطيع الجامعيون المصريون ان يساهموا بنصيب في رقي المعارف الانسانية . ومن رسالتها تربية اجيـــال من القادة تسدّ بهم البلاد حاجتها في شتى المرافق ، ونشر الثقافة العلمية والادبية في جميع الطبقات، ودفع عجلة التطور الاجتماعي بما تستحدثه من تجديد في العلم والفن . وعنـــده ان مجد لامة في شيئين : حياة جامعية صحيحة ، ونظام نيابي سليم ، وهمـــا معاً متعاونان ومتكاملان .

ومن اسباب النهوض الهامة يُسر اللغة ومواجهتها لحاجات العصر ومقتضياته ، وقد اضطلعت الفصحى في الماضي برسالة حضارية كبرى ، وما اجدرها ان تضطلع بها اليوم ، والا حلت العامية محلها . وكثيراً ما حاول لطفي السيد الصحفي والمؤلف والمترجم ان يقرّب العربية من الحياة ، وان يخرج بها من الجمود الذي بليت به في القرون الاخيرة. ومن وسائل تطويرها قيام مجمع لغوي يحافظ على سلامتها ، ويحرص على وفائها بمطالب العلوم والفنون . وكان سباقا الى الدعوة الى انشاء هذا المجمع ، انشأه اولا اهلياً عـــام ١٩١٦ ، وتعهده مع فريق من كبار العلماء والادباء ، واعدّ له ثانياً العدة رسمياً حين كان وزيراً للمعارف عام ١٩٢٨ . ثم رأسه منذعام ١٩٤٢ ، وطالب له ان يجلس فيه مع رجال العلم واللغة والادب . وآثاره فيه اجلّ من ان تحصى ، اسبغ عليه هالة من وقاره وجلاله ،

وسنّ له سنة العمل الصامت ،ووجهه نحو الفاظ الحضارة والحياة العامة ، ونمى فيه روح التسجيل واحترام الاستعمال السائد ، ورسم له حدوداً ومعالم يعيش عليها اليوم .

هذا هو لطفي السيد المجدد والمصلح ، وقلّ ان نجد احداً احتفظ في شيخوخته بروح التجديد مثلما فعل،وسارع الى تبني الافكار الجديدة مهما تبدو غريبة . وقد امتدت آراؤه ومشروعاته الاصلاحية الى نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في مصر،واصبح استاذ اجيال لا جيل واحد ، وكأنما شاء القدر ان يفسح له في العمر ليقف على مدى صدق آرائه ونظرياته . فكر في هدؤ ، وعمل في هدؤ ايضاً ، لم يتعجل في شيء قط لانه كان واثقاً مما يقول ويعمل. ولا شكّ في ان هدؤه وقاه كثيراً من حملات الخصومة والمعارضة. وقد يُرمى لهدؤه هذا بشيء من العجز والتردد ، ولكن قلّ ان تخطىء الخطى الثابتة .

واذا وضعناه الى جانب زميليه ادركنا مدى التلاقي بينهم ، ولاحظنا ان ثلاثتهم كانوا صحفيين وخطباء وكتابا وفلاسفة ، ولكنهم مع هذا يتميزون تميزاً واضحاً : فجمال الدين مصلح سياسي ، ومحمد عبده مصلح ديني ، ولطفي السيد مصلح اجتماعي .